تمثل الأنا الآخر في رحلة مبارك الميلي إلى فيشي

Representing the other ego in Mubarak Al-Maili's trip to Vichy

د- رفيقة بن لباد1،*

1جامعة أدرار – الجزائر-.rafika.adab1975@gmail

تاريخ الإيداع: 2022/12/02 **تاريخ المراجعة**: 2022/12/23 **تاريخ النشر**: 2022/12/31

ملخص:

قرأنا عن أدب الرحلة الذي يعد حقلا خصبا في كتب الأدب و التاريخ و الذي عرفه الغرب و العرب منذ القدم. ومن هذا المنطلق يمكن لنا أن تعتبر أن كتب الرحلات من أهم المصادر. حيث أن الباحث يجد ظالته من مشاهد واقعية. وهذا ما جعل التاريخ حافلا بأسماء العديد من أعلام أدب الرحلة، الذين ارتحلوا و زاروا و شاهدوا و دونوا.

و الجزائر واحدة ممّن يفتخر بعلمائها في هذا الفن، وخرج من أرضها رحالة صالوا وجالوا كثيرا، ودونوا انطباعاتهم وملاحظاتهم وقصصهم، والتعريف بأعلامها البارزين إلى غير ذلك من الأمور المهمة التي تستدعي الذكر.

ومن هؤلاء الرحالة نجد مبارك الميلي و زيارته إلى فيشي ونظرته للمدينة و أصحابها ومقارنته بين فيشي و ميلة.

الكلمات المفتاحية: أدب، الرحلة، أسلوب السرد،مبارك الميلي، الأنا و الآخر.

Abstract:

We read about travel literature, which is a fertile field in literature and history books that the West and Arabs have known since ancient times. In this sense, we can consider travel books as one of the most important sources. Where the researcher finds shadows from realistic scenes. This is what made history full of the names of many famous travel writers, who traveled, visited, witnessed and wrote down.

And Algeria is one of those who are proud of its scholars in this art. Travelers who prayed and toured a lot came out of its land, writing down their impressions, observations and stories, and introducing its prominent figures to other important matters that require mention.

Among these travelers, we find Mubarak Al-Maili and his visit to Vichy.

Keywords: literature, the journey, narration style, Mubarak Al-Maili, the ego and the other.

***المؤلف المراسل**

مقدمة عن أدب الرّحلة :

أدب الرّحلة من الفنون الأدبيّة النثرية التي عرفت ازدهارا في أدبنا العربي منذ القرون الأولى حيث "وصف فيه الرّحالة ما يرون، ومن يرون وجعلوا كتبهم تأخذ طابعا فنيّا، أدبيّا، تاريخيّا وجغرافيّا، حتى أصبحت أشبه بالموسوعة الثقافية، ويهتمّون في كتابة رحلاتهم بأسلوب التّشويق"[1].

و جاء في معجم المصطلحات العربيّة في" اللغة والأدب" "أنّ أدب الرّحلة هو مجمو عة الآثار الأدبيّة التي تتناول انطباعات المؤلّف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرّض فيها إلى ما يراه من عادات ، و سلوك، و أخلاق لتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها، أو سرد مراحل رحلته، مرحلةً مرحلة أو يجمع بين كل هذا في آن واحد"[2].

إذن أدب الرّحلة أدب وصفي ذو طابع إخباري تسجيلي، يهتمّ بجمع أخبار البلاد والعباد وتسجيل المشاهد الغريبة و هو يعد من المصادر الجغرافية و التاريخية و الاجتماعية.

و نعترف أن أدب الرحلة عرف منذ ما ارتحل الأدباء متجولين بين البدان للاكتشاف أو أمور أخرى. و الذي أضفى على أدب الرحلات الاهتمام هي الفتوحات التي قام بها العرب، حيث قال حسين محمد فهيم" أنها قديمة قدم زمان الإنسان ذاته إذ عرفها منذ العصور الغابرة حتى و قتنا و إن اختلفت دوافع الرحيل، و تباينت وسائل السفر، و تنوعت مادة الرحالة...كما تصف الكثير عناصر ثقافة البلدان التي ذهبوا إليها و أحوال الشعوب."[3]

و بهذا يمكن القول أن الرحلة تعبر عن الأنا و تنفتح على الآخر، و هي تعطي صورة عنه منطبعة بأحاسيس الإعجاب، أو الاستغراب.

أما أسلوب الوصف في الرّحلات فقيمته متأنيّة مع أنّها تصوّر لنا تأثر الكاتب بعالم جديد لم يألفه. والانطباعات التي تركها في نفسه، ومشاهدة الطبيعة وآثارها، فهي بذلك مغامرة ممتعة كما تقوم بها روح حسّاسة في أمكنة جديدة، وبين أناس لم يكن لها بهم سابق عهد".[4]

أنواع أدب الرحلة

يتنوع أدب الرحلات بتنوع أغراض الرحلة وباختلاف وجهة أنظار الرحالة وغيره من الأسباب، وأنواعه ما يلي:

أدب الرحلة القصصي

أدب الرحلة الجغرافي

أدب الرحلة الثقافي

أدب الرحلة المشاعري

أدب الرحلة الديني

فو ائد أدب الرحلات

* يعرف قارئ الأدب الرحلة – وهو مستريح في غرفته – عن

* بلاد أجنبية. وثقافتها.

* وهيئتها الإجتماعية. وجغرافيتها.

* ومناظرها الجميلة.

* بل إن كان الرحال كاتبا قديرا، فالقارئ كأنه يرى هذه الأشياء رأي العين، ويحسب نفسه مرافقا للرحالة. وبالإضافة إلى ذلك يتمتع بأدبه وأسلوبه..

أما الهدف من أدب الرحلة التّأثير في القارئ و التّواصل معه، حيث يستمتع بكلّ ما فيها وتزداد ثقافته ومعارفه بطريق غير مباشر، بل إنّه يجعل القارئ يقوم برحلة ممتعة دون حركة أو انتقال .

أهمية أدب الرحلة:

أما أهميته تكمن في أن لكل عمل أدبي أو علمي قيمة؛ و هذه القيمة تكمن في مقدار المعلومات و الثقافات التي تقدّم للقارئ. يمكن أن نجملها في النقاط التالية:

1. هي عمل أدبي يبين المستوى الفكري لدى الكاتب.
2. تعتبر مصدر لوصف الثقافات الإنسانية لرصد بعض جوانب حياة الناس"لذا كان لها قيمة علمية من حيث أنها أكثر المدارس تثقيفا للإنسان و إثراء لفكره، و تأملاته عن نفسه و عن الآخرين"[5].
3. ما تتوفر عليه الرحلة يهم المؤرخ و الجغرافي و علماء الاجتماعو الاقتصاد، و مؤرخي الآداب و الأديان و الأساطير، فاضاف محمود حسين" الرحلات منابع نثرية لمختلف العلوم"[6].

و الرحلة تتضمن الكثير من الأحداث التي شارك فيها الكاتب برا أ و بحرا. وتعد الرحلة الواقعية هي الأصل في أدب الرحلات و هي التي يقوم بها الكاتب فعلا. وهذه الأخيرة لا بد أن تتوفر على شرطين:

1. "أن يكون من يكتب عن الرحلات ر حالا بطبعه محبا للرحلات.
2. أن يكتب بالأسلوب الذي يجعل وصفه للرحلة يعكس روح الرحلة، و الرغبة التي تتملكه للقيام بها."[7]

إلا أننا قد لا نجد بعض الرحالين التزموا بهذين الشرطين.

من بين المصادر التي يعتمدها الرحالة ليكشف عن الآخر نجد:

1. المشاهدة.
2. المعايشة.
3. السماع و الإخبار.
4. النقل عن الكتب.

أدب الرّحلة في الأدب الجزائري:

قد أسهم الجزائريون في أدب الرّحلات مساهمة واضحة، وكانت بعض رحلاتهم نتيجة للحج وبذلك تكون رحلات حجازية، وبعضها نتيجة لطلب العلم وبذلك تكون رحلات علميّة" [8].

ولعلّ من أقدم الرّحلات التي تنسب إلى ما قبل العهد العثماني هي رحلة(التوجاني التلمساني). كما أن "أحمد المقرّي" قد ساق في أزهار الرياض، رحلة لجدّه" محمد المقرّي التلمساني" المعروف بأنه أستاذ ابن خلدون، وتنسب إلى "أحمد القسنطيني" المعروف

بـ" ابن قنفذ "رحلة تعتبر في حكم الضائعة، ولعلّها موجودة بتونس أمّا الرّحلات في العهد العثماني فتنقسم إلى قسمين: رحلات علميّة وأخرى حجازية.

- الرّحلات العلميّة :من أقدمها رحلة "عاشور بن موسى القسنطيني"، المعروف

" بالفكيرين"، تحدّث فيها عن طلبة العلم في عدة بلدان، وتحدّث عن غريب البلاد وأهلها... وذكر غرائب المسموعات. ومن الرّحلات المكتوبة، وغير الحجازية رحلة

"عبد الرزاق بن حمادوش "، فهي رحلة قام بها المؤلّف لطلب العلم والتجارة من مدينة الجزائر إلى تطوان فمكناس ثمّ فاس وبعدها عاد إلى الجزائر من تطوان وقد وصف الحياة السياسية والاقتصادية في المغرب، وسجّل ملاحظاته وإجازات العلماء له وأحكامه في رحلته . ولعلّ آخر هذه الرّحلات رحلة(زين الدين الأغواطي) وقد تحدّث الأغواطي في رحلته عن الصحراء وقراها، وواحاتها وعاداتها وتقاليدها وذكر توات .

أمّا في العهد الاستعماري فقد وظّف المستعمر الغاشم الرّحلة لتحسين صورته وتحقيق أغراضه الاستعمارية، وتتضمن رحلتان اتّجه صاحباها من الجزائر إلى باريس برعاية الحكّام العسكريين في الجزائر وفرنسا .رحلة" سليمان بن صيام" إلى بلاد فرنسا أو الرّحلة الصيامية أمّا الرّحلة الثانية فصاحبها" أحمد بن قادة" سمّاها«الرّحلة القادية في مدح فرنسا وتصبير أهل البادية»وقد برع الرّحّالتان في تمجيد المستعمر، ووصفا فرنسا وصفا يصل لحدّ الافتتان والإعجاب.

ويمكن أن نحدد قيمتين أساسيتين لأدب الرّحلة وهما القيمة العلمية والقيمة الأدبيّة.

1- القيمة العلمية: تتجلّى هذه القيمة في المعلومات التي تقدّمها في مختلف الاختصاصات التاريخية والجغرافية والاقتصادية والاجتماعية، من وصف للمسالك والعمران و نمط المعيشة من عادات وتقاليد ليكون أدب الرّحلة بمثابة مدوّنة يلجأ إليها الكثير من الدارسين.

2- القيمة الأدبيّة :إذا كان أدب الرّحلة فنا أدبيا يحمل فائدة للمؤرّخ والجغرافي وعالم الاجتماع... فإنه يحفل كذلك بكثير من "الأساطير والخرافات وبعض المحسّنات البلاغية، وجمال اللفظ وحسن التعبير وارتقاء الوصف وبلوغه حدا كبيرا من الدّقة علاوة على ما يستعين به أحيانا من أسلوب قصصي وهذا هو الذي يجعل بعض الدارسين يدخلون أدبيات الرّحلات ضمن فنون الأدب العربي" [9].

3- إلى جانب هاتين القيمتين هناك قيمة لا تقل أهمية عنهما هي القيمة التعليمية.

إنّ القول بأنّ أدب الرّحلة فنّ يقترب من فنّ القصة وهو راجع بالدرجة الأولى إلى طبيعة بعض الرّحالة، هؤلاء الذين جنحوا إلى سرد القصص التي عاشوها أو سمعوا عنها، وكان سردهم لهذه القصص بعفوية وحيوية، قرّبت الرّحلة من عالم القصة. وإلى جانب السّرد نجد حضور الوصف الدّقيق والبارع في معظم الرّحلات، هذا الذي قرّب أدب الرّحالة إلى أسلوب القاص كون جوهر الرّحلة هو وصف السّفر من موضع إلى آخر،

وما تقع أبصار المسافر من مشاهدات وما يتطرّق إليه من أخبار. ثمّ إن أدب الرّحلة لم يقترب من فن القصة فحسب، بل اشتمل على جميع الفنون الأدبيّة فعلى سبيل المثال نجده يقترب من فن الرّواية في بعض الأحيان خاصة في العصر الحديث، إذ أخذت في الابتعاد عن الشكل القديم والترابط معا.

وكثيرا ما يلجأ الرّحالة إلى الاستشهاد بأبيات شعرية تبرز أدبيّته سواء كانت من نظم الرّحالة نفسه، وهذا ما يثبت قدرته الشعرية والنثرية معا، وأحيانا أخرى يستعين بأبيات غيره مما يؤكد سعة اطّلاعه ودقّة معلوماته .

والرّحّالة حين يستعين بالشعر إنما ليعبر من خلاله عمّا يختلج في نفسه من مشاعر حرّكتها مشاهداته وملاحظاته.

كثيرا ما يسيطر على الرّحالة الجانب الذاتي، فنجده يعبّر عن أحاسيسه، ومشاعره سواء كان شعورا بالفرح أو بالحزن. "كما يلجأ أحيانا إلى طابع السخرية والفكاهة بغية إضفاء لمسة خاصة لها تأثير على القارئ بل قد يصبح هذا الأسلوب الخفيف المرح الساخر علاجا للحزن والألم النفسي"[10] .

والرحلة تحوي أخبارا متنوعة جغرافية وتاريخية بأسلوب وصفي دقيق مع روح دعابة خفيفة ولغة واضحة وأسلوب تقريري إخباري في غالب الأحيان.

إذن الرّحالة ينقل لنا مشاهداته ومعايناته في عمل فني يتمتع بالأدبيّة ذلك أنّه ينقله بالتدريج من مستوى الاعتراف إلى مستوى العمل الفني.

أسلوب الكتابة في أدب الرّحلة يتسم بطابع العصر وينعكس عليه ما ينعكس على أسلوب النثر في العصر الذي كتب فيه، و هو يمتاز بالسلاسة والتتابع، فهو ينتقل من فكرة إلى فكرة، ومن فاصل زمني إلى آخر ، يكتب دون سجع ولا نلمس محسّنات بديعيّة رغم وجودها في ذلك العصر سواء أكانت اللفظية أو المعنوية.

ومن الرّحّالة الجزائريين نجد رجال الحركة الإصلاحية في الداخل التي تصور مدى تعلق الشعب بالحركة وبعلمائها، نلمس ذلك في رحلات " ابن باديس" التي سجلها، وأبرز فيها زياراته المختلفة لمدن وقرى القطر

الجزائري، وهو يطلق عليها لفظ " تنقلات ". ويصرح بهدفه من وراء رحلاته وهو تذكير الناس بدينهم، وحثهم على الرجوع إليه.

إلى جانب رحلات البشير الإبراهيمي الكثيرة داخل الوطن وخارجه. وكان أسلوبه في هذه الرحلات يمتاز بالعناية الشديدة بالصياغة والبيان والجمال الأدبي.و كذلك رحل إلى المشرق .

ولعل أهم الرحلات التي تحمل طابعاً سياسياً قومياً، رحلات " أحمد توفيق المدني " داخل الجزائر وخارجها، في أوربا والعالم الإسلامي والعربي.

و من بين رجال الإصلاح كذلك نجد مبارك الميلي الذي كتب رحلته إلى فيشي فمن هو مبارك الميلي و لما رحلته هاته؟

مبارك الميلي:

الشيخ المرحوم مبارك بن محمد إبراهيمي الميلي الجزائري، ولد رحمه الله سنة 1898م الموافق ل 1316هـ تقريبا في "دوار أولاد مبارك" من قرى الميلية .نشأ بالبادية نشأة القوة و الصلابة و الحرية، و تربى يتيماً، فبعد وفاة والده محمد، توفيت أمه تركية بنت أحمد بن فرحات حمروش ، فكفله جده" رابح " ثم عماه "علاوة" و" أحمد ."

نزح الشيخ رحمه الله إلى بلدة "ميلية" التي كانت تستقطب طلاب حفظ القرآن بصدر رحب و هناك حفظ القرآن، و زاول الدروس العلمية الابتدائية و قد أهلته هذه الدروس للالتحاق بدروس الشيخ العلامة "عبد الحميد ابن باديس" بالجامع الأخضر، وهناك وجد بغيته في دروس الشيخ الحية وتلقى منه الأفكار الإصلاحية بحماس و إيمان.

التحق الشيخ مبارك بجامع الزيتونة بتونس وانخرط في سلك تلاميذه و أخذ عن جلة رجال العلم و المعرفة به ممن انتفع بهم أستاذه ابن باديس رحمه الله، وقد كان هناك في تلك السنوات التي قضاها مثلا للطالب المكب المجتهد ، فرجع من تونس بشهادة التطويع سنة 1924 م.

وبعد تحصيله على شهادة التطويع رجع إلى قسنطينة، حاملا معه "مسودة قانون أساسي" ليحث الطلاب وأهل العلم على إنشاء مطبعة كبرى تطبع المخطوطات ، وتنشر الجرائد و المجلات لتحي أمته حياة عملية لا نظرية ، ووجد أستاذه الشيخ عبد الحميد قد بعث بقلمه صيحة مدوية في أرجاء الوطن داعية إلى الخلاص من الشرك و التحرير من أغلال العبودية فأصدر جريدة "المنتقد " ثم أخرج بعدها "الشهاب" الأسبوعي ، وظل كذلك يكافح وحده إلى أن رفع مبارك قلمه و انضوى تحت لواء أستاذه بالأمس و صاحبه في الحال، وقال له: "ها أنا ذا فكان الفتى المقدام و المناصر الهمام"

و في سنة 1926م انتقل إلى الأغواط بدعوة من أهلها، و زرع فيهم بذرة العلم الصحيح، وقضى في هذه المدينة سبع سنوات أسس فيها مدرسة " مدرسة الشبيبة " و هي من أولى المدارس العصرية والنادرة في ذلك الوقت، كما أسس بعدها "الجمعية الخيرية "لإسعاف الفقراء و المساكين و الأيتام.

و كان له دروس ليلية في الوعظ و الإرشاد يلقيها بالمسجد على عامة الناس ، كما كان يخرج إلى" الجلفة" شمالاً، و

"بوسعادة" شرقاً و "آفلو" غرباً لإلقاء دروس يدعوا فيها بالتمسّك بالكتاب و السنة و نفض غبار الجهل و الكسل و محاربة البدعة في الدين.

و أنشأ الشيخ رحمه الله في مدينة الأغواط حركة علمية قوية و سير منها البعثات الدراسية نحو " جامع الزيتونة " على غرار ما كان يفعل أستاذه ابن باديس رحمه الله.

و في سنة 1931 م أسست "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" و كان الشيخ مبارك عضواً في مجلس إدارتها و أمينا لماليتها .ثم رجع الشيخ رحمه الله إلى موطن الصبا "ميلة" فأنشأ فيها جامعا كان خطيبه و الواعظ المرشد فيه ، ومدرسة " الحياة "التي أشرف على سير التعليم فيها ، ونادي " الإصلاح "الذي يحاضر فيه. ثم أسند له رئاسة تحرير جريدة "البصائر" الأسبوعية بعد الشيخ الطيب العقبي رحمه الله تعالى. وفي سنة 1940م لما توفي الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله، عُين خلفا له في إدارة شؤون "الجامع الأخضر" و الإشراف على الدروس فيه .

بعد خروج الشيخ مبارك رحمه الله من" الأغواط " حوالي سنة 1933 م ، ابتلي بداء عضال و مرض مزمن مضني " داء السكري " ، و قد حاول الشيخ علاجه غير مرة في الجزائر بل وخارجها ، فسافر من أجله إلى " فيشي "بفرنسا ،لكنه سرعان ما عاوده ، كما وقع له عند سماعه خبر وفاة شيخه العلاّمة ابن باديس في أبريل 1940 م قال رحمه الله : "عندما سمعت لدى وصولي إلى قسنطينة بموته شعرت أن الدورة الدموية أصبحت تسير في عكس الاتجاه المعهود، و عرفت في الحين أنّ داء السكري قد عاودني و أنه لن يفارقني حتى يقضي عليّ."

و كذلك قُدِّر، فقد أخذت صحته في الانهيار حتى وافاه الأجل يوم 25 صفر 1364هـ الموافق ل 9 فيفري 1945م وشيعت جنازته من الغد في موكب مهيب و في مقدمتهم الشيخ البشير الإبراهيمي رحمه الله تعالى ، ودفن في مقبرة الميلة رحمه الله تعالى.

من أشهر ما ألف "رسالة الشرك ومظاهره" و"تاريخ الجزائر في القديم والحديث" .

الأنا و الآخر في موضوع الرحلة:

قد تكون هناك مجموعة من الأسباب أدّت بـ"مبارك الميلي" إلى تأليف هذه الرّحلة.

ربّما تكون الرّحلة نفسها، أو رغبة داخلية تعتريه، أو من أجل استظهار مقدرته على الكتابة، أو من أجل وضع مقارنة بين ما رآه في أوروبا و ما يعيشه في الجزائر خاصة ميلة.

فالقصدية من الرّحلة قسمان:

قصدية الرّحلة والتي تقتضي الذّهاب والإياب من أجل العلاج .

وقصدية الرّحلة من أجل الكتابة.

أما الأولى فهي من أجل الرّحلة وفقط ذهابا وإيابا، وبذلك تزداد خبرته، وثقافته في مختلف العلوم والمعارف، والثانية من أجل الكتابة وفقط، وكأنه يكتب من أجل أن يكتب، وإظهار أسلوبه الأدبي المميّز، وإبراز عبقريّته الأدبيّة تجاه الموضوعات التي يتناولها، وهي مستقاة من الواقع الذي يعايشه.

بالنسبة للدافع الأوّل والمتمثّل في الرّحلة نفسها، فلعلّ " مبارك الميلي" كتب في الرّحلة من أجل الرّحلة ، كونه رحل من أجل العلاج.

أما الدّافع الثاني، قد يكون رغبة داخلية تعتريه بتسجيل الأحداث مع إبراز قدرته على سردها، فهي محشوّة بأخبار وتعاليق واستطرادات مختلفة، يتّضح لنا شكل الرّحلة في القسم الخاص بالحديث عن المدينة فيشي.

بدأت الرّحلة إليها على ظهر سفينة فرنسية " شاءت الأقدار أن نركب الأسفار ونجتاز البحار من إفريقيا إلى أوربا ".[11] لكنه لم يعطنا متى -أي الوقت- ركب السفينة و لا الوقت الذي قضاه في البحر أظن أن المرض كان قد أنهكه.

ثم أضاف و ذكر السبب الذي جعله يقوم بهذه الرحلة متأثرا بمرضه" لا لتجارة ومغنم ولا لنزهة ومطرب ولا لشكاة ومطلب ولكن استرجاعا لقوة أذابها الداء واستجماعا لنشاط عجز عن أداء الواجب نحو الدين والشعب"[12].

و ذكر في رحلته الزمن الذي خرج به إلى أوربا -مدينة فيشي- " فذهبنا أواخر ربيع الأول (ماي) إلى فيشي"[13] ثم الزمن الذي أطلّت عليه علامات الشفاء " وها نحن أولاء في الأسبوع الثاني من ربيع الثاني (جوان) وقد أطلّت علينا طلائع الراحة والعافية والحمد لله"[14] و الوقت الذي دام بين هاذين التاريخين دليل على أنه بقي مدة في فيشي.

و قبل أن يبدأ في وصف فيشي قال أن حديثه يكون بين المرض و الشفاء لأنه في مرحلة بين بين وكان مازال لم يشف تماما و هذا يدل على أنه لم يتحدث عن كل ما رآه في هذه الرحلة بسبب المرض فيقول:" ولكن حديث بين الصحة والمرض فهو أشبه بما بين النوم واليقظة..."[15]

أما في كلامه على جهله لسان المدينة أي أنه لا يستطيع تبادل أطراف الحديث معهم حتى يتسنى له معرفة عاداتهم و تقاليدهم لذا لم نجد شيئا عن عاداتهم و تقاليدهم في هذه الرحلة فلم يستطع الحكم على كل ذلك و اعتبره نقص فقال" إلى جهل بلسان أهلها جهلا يمنع من استكشاف دخائلهم وبث الحكم في طبائعهم"[16].

بعد ذلك انطلق يصف لنا مدينة فيشي و علامات الانبهار بادية في كلامه فيقول أنها شاسعة فيها بنايات عالية فقال" فسيحة الأرجاء رفيعة البناء"[17] وجاءت في رحلته وصف لبعض الأماكن التي سار و تجول فيها فقال" يجري جنوبها من شرقها إلى غربها نهر"للبي" -بفتح فسكون فكسر- وقد جعل له سد حبس ماءه حتى تكون له

عمق يحمل الفلك ويرتاض عليه بالسباحة ويساوق النهر بينه وبين المدينة بور عريض به أشجار مرتفعة وعشب ناعم تتخلله طرق وتزينه برك وتمكن من الاستراحة فيه كراسي على نحو ما هو معهود في البساتين البلدية."[18]

ثم يؤكد أنه ليس فقط هذه الأماكن الوحيدة في مدينة فيشي مهيأة للاستراحة و النزهة؛ و إنما توجد أماكن أخرى لكنه فضل هذا المكان فكتب "ولكن نزهتهما أمتع ومنظرهما أوسع"[19] وربما كذلك المرض كان يمنعه من السير كثيرا.

كتب في رحلته أنه بالإضافة إلى هذا الجمال نجد نظافة الطرقات و كذا أمن الأطراف. لكنه هنا بدأ في وضع مقارنة بين ميلة و فيشي فعاد إلى المثل العامي *"كل زين فيه لولا..."*. و ذلك ليبين لنا أنه بالرغم من الجمال و علو الأبنية و النظافة إلا أنه هناك نقص حيث وصف لنا كيف هي أنهجتها؛ مفضلا طرق ميلة عليها فقال" بأن أنهجها لم تختط خطوطا مستقيمة متوازية. بل هي خطوط منحرفة ملتوية يعترضها الناب غالبا. ولعل ميلة الجدية تفتخر على فيشي بانتظام خطوط أزقتها"[20].

تحدث عن البنايات أن معظمها فنادق و كل فندق و مطعمه، حتى يسهل على المقيم مشقة الانتقال للبحث عن مطعم.

جاءت في رحلته أنه عندما زار المكتبة قال أن أغلب المطبوعات من الروايات و كل ما يتصل بالتسلية. و عندما زار الأسواق وجد معظم المعروضات الحلي و المصوغ.

و أضاف أن فيشي مشهورة بالحلويات.

بعد هذا كله يعود إلى المقارنة بين ميلة و فيشي لكن هذه المرة لصالح فيشي فيقول "فطرفك لا يقع إلا على مظاهر النعيم والترف، في أرض ليست أطيب تربة ولا أغنى طبيعة من أرضنا"[21] و هنا يبين أن العلم و الحكم يلعبان دورا كبيرا في الرقي و الازدهار أما الجهل و الاضطهاد يجعلان الشعب يدور في دوامة الأزمة و التأخر و الأمية.

ووصف العلم و صرامة الحكم بالقوة والجهل و الاضطهاد بالعلة و هذا ما يؤكد أن اضطهاد الاستعمار الغاشم سبب كبير في تأخر الشعب الجزائري.

يقف مبارك الميلي متعجبا أمام أخلاق و بشاشة التجار و ترك هذا الأمر أثرا في نفسه بالرغم من الغلاء الفاحش للمعروضات" يعجبك من تجارتها الاتساق في الوضع ودقته الذوق في العرض إلى حسن أدب التاجر وسعة صدره وبشاشة"[22].

ثم ينطلق يوضح لنا لماذا هذا الغلاء فيقول" ويظهر أن ارتفاع أسعارها يرجع أولا إلى أن موسم هذه المدينة خاص بهذا الفصل. فالتاجر يعمل في أشهر من السنة لكفاية عامه"[23] وعلى الغريب أن يحتمل هذا الغلاء و إلا وصف بالتشويش و هذه الصفة مشتركة ففي نظر مبارك الميلي من يبدي اعتراضه يرمز له بالمشوش حتى و هو في وطنه.

ذكر المسلم في رحلته و قال أنه لا بد على المسلم أن يخجل و هو الذي أمره دينه بالنظافة إلا أننا نرى العكس النظافة نجدها عندهم و كأننا تبادلنا ما جاء في الأديان.

أثنى عليهم أنهم يعرفون معنى الإنسانية فنحن الذين حرم الله علينا الخمر نجد السكارى يتسكعون في الشوارع و هم الذين مباح لهم الخمر لا تجد سكيرا في الشوارع.

فتعجب مبارك الميلي من أدب هؤلاء و ادعاء الآخرين بنبل الأخلاق.

ويعترف أننا نقوم بجنايتين جناية على الدين و أخرى على البشرية.

علق كذلك على إنسانيتهم بذكره لمعاملتهم للنزلاء" والذي أدركناه أنهم ينظرون إلى غيرهم بعين الإنسانية المجردة من الفوارق الدينية والجنسية والسياسية"[24]. و هذا الأمر لا نشاهده في الجزائر مع المستعمر بالرغم أنهم من نفس الجنسية فهؤلاء لم تأخذهم أطماع السياسة.

عرج الميلي في حديثه على الكنائس و قال" ولا نختم هذه الكلمة قبل أن نذكر الكنائس فقد رأيتها في هذه المدينة كثيرة ضخمة زائدة بكثير عن حاجة السكان القارين"[25]. و تساءل عن سبب ذلك.

لم يبخل على العرافين و جعل لهم جانبا في حديثه " وقد دخل العرافون (المرابطون) إلى هذه المدينة من كوة المسيحية، فترى لهم من ناحية متطرفة مجالس لترويج بضاعتهم. ولكن لم أر عرافا إلا وهو كبير السن. فالعرافة عندهم من بقايا الجيل الماضي."[26] هذا يعني أنهم تقدموا حتى في دينهم فإنك لا تجد شابا يقوم بالشعوذة.

تحفل الرّحلة بالمعلومات عن عصره سياسيا واجتماعيا، وعن معاصريه وأفكارهم وأخلاقهم ويظهر ذلك من خلال حديثه عن معاملة المستعمر للجزائريين وتمنى مبارك أن يتخلى الجزائريون على الخرافات و يسعون قدما فهي تخريب للعقول و الجيوب.

ختم كلامه بنصيحة حول الجد و العمل و الصبر على مكائد الاستعمار، و أمنية تمنى لو سمعها الشعب الجزائري و خرج من الدوامة التي يعيش فيها من خرافات و شعوذة و التطلع لمستقبل مفعم بالحرية و الاستقلال، فهي خرافات زرعها المستعمر في أذهانهم حتى يلهيهم عن جوهر الحرب.

نقل لنا الميلي الحقائق بكل موضوعية وحرّية مطلقة، وكان موقفه واضحا وبارزا تجاه ما يحدث وما يُشاهد. لم تكن رحلاته مجرّد تجوال في الآفاق هدفه التسجيل الجغرافي ورصد المشاهد والعمران فحسب، بل كانت تلك الرّحلات مجالا رحبا للنواحي الفنية والجمالية والملامح الأدبيّة والأسلوبية والتحليل الدقيق و كانت كذلك تحفيز للشعب الجزائري حتى ينهض ببلاده قدما.

خاتمة:

طغى النمط السردي وكذا النمط الوصفي على الرّحلة والتي تشبه يوميات أحد الرّحالة . وغلب على النص الأسلوب الخبري و هو الذي يلائم السرد أما الأسلوب الانشائي جاء في كلامه عن الكنائس فقال" فلا أدري أهو استعداد من رجال الدين للضيوف كاستعداد رجال الأموال؟ أم إن المدينة وما يتصل بها ويقرب منها تغلب عليهم الديانة؟فهو استفهام غرضه التعجب، كما جاء في سرده الطباق بين:العلم و الجهل، كذلك الحكم و الاضطهاد، و بين سمو و سقوط.

هُمّش أدب الرّحلة في الجزائر رغم قيمته الكبيرة، فظلّ في الدّرجة الأخيرة رغم أنّ هؤلاء الأدباء سافروا كثيرا، وعرفوا شؤون الأمم وحضاراتها وتاريخها ومدنها.

ربّما كان بعض إحجام الكتّاب عن الاهتمام بالأسفار ناتجا عن هيمنة الأجناس الأدبيّة الأخرى والتركيز على الكتابة السردية والشعرية من أجل الشهرة.

أتصوّر أن هذا العامل لعب دورا أساسيا في تهميش الرّحلة على عكس ما هو متعارف عليه في بلدان عربية أنشأت لهذا الجنس مخابر خاصة تهتم بأشكاله وموضوعاته ولغته وبلاغته.

فمن خلال العناصر التي تطرّقنا إليها في أدب الرّحلة جعلتنا نكتشف ما مدى أهمية هذا الموضوع وقيمته في الأدب العربي، وذلك من نواحي مختلفة سواء كانت هذه الخدمة من الناحية الأدبيّة أو التاريخية أو الجغرافية، فقد كانت بمثابة الخريطة التي أعانت الجغرافي في معرفة مختلف الأقاليم والمسالك دون أدنى جهد أو تعب لأنّه نقلها عن الذي اتصل بالظواهر الجغرافية اتصالا مباشرا.

*- الرّحلة هي سرّ وحدة البشر، والجسر الواصل بين مختلف الشعوب والأقوام.

*- الرّحلة حافز كبير لبناء شخصيّة قوية، وهذا من خلال التّجارب القاسية وحرارة المواقف وصعوبة المغامرة التي يمرّ بها الرّحالة.

*- كانت الرّحلة بكافة صورها ومشاهدها وأغراضها إحدى الرّكائز الإنسانية في بناء الحضارة العربيّة الشامخة.

*- كما أنّها اعتبرت وسيلة لإثارة تلك الرّغبة التي يعتليها التفوّق والطموح إلى السّيادة .لولا الرّحلة ما كنّا لنسمع عن "ابن بطوطة" أو "ابن خلدون" وغيرهم، فمن النّادر أن نجد أديبا أو عالما لم يرتحل أو لم يسبق له أن خاض مغامرات صقلت مواهبه.

هوامش وإحالات المقال

[1]- ينظر،عبد الله كروم، الرحلات بإقليم توات، دراسة تاريخية، و أدبية للرحلات المخطوطة بخزائن توات، دار النشر، دحلب، د ط، 2007، ص (33،34).

[2]- -ينظر، مجدي وهبة، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة الحياة، بيروت، ط 2 ،1979م ،ص 17.

[3]- حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، رقم138، الكويت، د ط، 1989م، ص15.

[4]-ينظر، ناصر عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرّابع، مكتبة الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، (3)القاهرة، ط 1 ،1995م ،ص 23.

[5]- حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، رقم138، ص19.

[6]-حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، ط 2، 1983م، ص6.

[7]- انجيل بطرس، الرحلة في الأدب الإنجليزي، مجلة الهلال، دار الهلال، مصر، عدد يوليو 1975م ، ص 52.

[8]- ينظر، عبد الله كروم، الرحلات بإقليم توات، دراسة تاريخية، و أدبية للرحلات المخطوطة بخزائن توات ، ص ص 45- 46) .

[9]- ينظر، سيد حامد النساج، مشوار كتب الرحلة" قديما وحديثا"، مكتبة غريب، القاهرة، د/ ط، د ت، ص 08.

[10]- ينظر، ناصر عبد الرزاق الموافي، المرجع السابق، ص 58.

[11]- البصائر المجلد 3 السلسلة الأولى /ص 240.

[12]- المصدر نفسه، ص ن.

[13]- المصدر السابق، ص ن

[14]- المصدر نفسه، ص ن

[15]- المصدر نفسه، ص ن.

[16]- المصدر نفسه، ص ن.

[17]- المصدر نفسه، ص ن.

[18]- المصدر نفسه، ص ن.

[19]- المصدر السابق، ص ن.

[20]- المصدر نفسه، ص ن.

[21]- المصدر نفسه، ص ن.

[22]- المصدر السابق، ص ن.

[23]- المصدر نفسه، ص ن.

[24]- المصدر نفسه، ص ن.

[25]- المصدر نفسه، ص ن.

[26]- المصدر السابق، ص ن.

المراجع

1- انجيل بطرس، الرحلة في الأدب الإنجليزي، مجلة الهلال، دار الهلال، مصر، عدد يوليو 1975م

2- البصائر المجلد 3 السلسلة الأولى.

3- حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، ط 2، 1983م

4- حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، رقم138، الكويت، د ط، 1989

5- سيد حامد النساج، مشوار كتب الرحلة" قديما وحديثا"، مكتبة غريب، القاهرة، د/ ط، د ت،

6- عبد الله كروم، الرحلات بإقليم توات، دراسة تاريخية، و أدبية للرحلات المخطوطة بخزائن توات، دار النشر، دحلب، د ط، 2007

7- مجدي وهبة، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة الحياة، بيروت، ط 2 ،1979م

8- ناصر عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرّابع، مكتبة الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، (3)القاهرة، ط 1 ،1995م ،